البينية النحوية البيانية

د. مجدي محمود رشاد*

على الرغم من الأبحاث الإيجابية التي تظهر التكامل والتواصل بين علمي النحو والبلاغة، إلا أن هناك من أخذ يدعو إلى نقض تلك الصلة بحجة أن علم البلاغة لحقه الجمود والجفاف والتأخر...إلخ من السلبيات جراء اتصاله بعلم النحو[1] ولا أظنه يقصد بالسلبيات إلا صلة علم النحو بعلم البيان؛فإن الفنون البيانية لا تتبدى فيها الصلة واضحة بالنحو وأبوابه.

لذلك شرعت بالرد على تلك النظرة الهدامة بكتابة بحثي ("السياق النفسي في كتاب سيبويه"، و"خصائص ابن جني نفسيًّا" الذي تحدثتُ فيه عن اتصال النحو بالبديع).

أمَّا هذا البحث فقد خصصته للبينية النحوية البيانية، ولا أريد أن أسطح الحديث، بل أريد ثبر الغور والتدقيق؛ فجاءت البينية بالبحث في:

الاتصال الصرفي البلاغي: الخاص بتغيير بنية الكلمة لأغراض دلالية بلاغية؛ كتغيير بنية الفعل المبني للمعلوم إلى صيغة المبني للمجهول لغرض بلاغي كالإيجاز في الجملة الذي هو مطلب بلاغي[2] بل هو أحد المباحث البلاغية الذي يلعب دورًا صرفيًا في اختيار أو تفضيل استخدام صيغتي "النسب" و"التصغير" بدلاً من النعت بالنسب أو النعت بالتصغير بغية الإيجاز أو

* أستاذ النحو والصرف المساعد بكلية اللغات والترجمة– جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

الاختصار البلاغي كما هو واضح في تقعيد أسلافنا " اعلم أنهم قصدوا بالتصغير والنسب الاختصار كما في التثنية والجمع وغير ذلك , إذ قولهم : رجيل أخف من رجل صغير،وكوفي أخصر من منسوب إلى الكوفة ,وفيها معنى الصفة كما ترى"[3]

وجدير بالذكر أن نذكر هنا أن للسياق والمقام دورًا في تحديد ما بين المبنى والمعنى من صلة حميمة . وقد تحدث عن ذلك البلاغيون , بل إنهم بحثوا حديثًا . إضافة إلى العلاقة بين الصيغة والمعنى . عن العلاقة بين المباني والبواعث النفسية المحركة " فالكلمات يمكن أن تخضع للبواعث المحركة لها فتصبح شفافة أو معتمة . ويتم هذا على مستويات صوتية وصرفية ودلالية, ولكل منها نتائج أسلوبية بارزة .... أما الباعث الصرفي فيتمثل في وجود صيغ ومشتقات صرفية شفافة ذات أثر أسلوبي ، وبخاصة تلك التي تتصل بالمجال العاطفي , مثل صيغ التصغير والتحقير والهزل والسخرية وغيرها من الصيغ التي قد تكتسب دلالة أسلوبية جديدة في سياق تعبيري يبرز شفافيتها ويخفف من عتمتها"[4]

ومما ينبغي التنبيه إليه هنا أن العلوم العربية جميعها بما فيها الصرف والبلاغة نشأت لخدمة القرآن الكريم بما في ذلك التوجيه البلاغي للتغيير الصرفي لآيات الذكر الحكيم.

حيث تتجلى صلة الصرف بالبلاغة في التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية التي نرى جلّ اختلافاتها صرفيًا أو صوتيًا [5]

حيث نرى ابن قتيبه[6] (ت276هـ) يفسر حديث النبي: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه" بتأويل وجوه الاختلاف في سبعة أشياء:

1. اختلاف الأسماء بالإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث, كما في قوله تعالى:{كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} (البقرة:285), فقد قرىء (وكتبه) بالجمع (وكِتابه) بالإفراد.

2. الاختلاف في وجوه الإعراب , كما في قوله تعالى :{هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} [هود:78] فقد قرىء (أطهر) برفع الراء ونصبها .

3. الاختلاف في التصريف , مثل قوله تعالى {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْن أَسْفَارِنَا} (سبأ:19) قرىء (باعد) خفيفة العين قبلها ألف على الأمر, و(بَعّد) مشددة العين بغير ألف , كما قرىء (ربُّنا) برفع الباء , و(بَاعَد) بفتح العين والدال قبلهما ألف , على أنه فعل ماض .

4. الاختلاف بالتقديم والتأخير , وقد يقع ذلك في حروف الكلمة , في مثل قوله تعالى :

{ أَفَلَمْ يَيْأَسِ} [الرعد : 31] قرىء (ييأس) بياءين متتاليين, كما قرىء (يأيس) بياءين بينهما ألف , ويقع كذلك في الكلمات, كما في قوله تعالى {فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} [التوبة :111] قرىء بالبناء للفاعل في الأول , وللمفعول في الثاني , وقرىء بالعكس .

5. الاختلاف بالإبدال, سواء أكان إبدال حرف بحرف, كقوله تعالى: {وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا} (البقرة 259) قرىء (ننشزها) بالزاي المعجمة مع ضم

النون الأولى, وقرىء بالراء المهملة مع ضم النون الأولى , أم إبدال لفظ بلفظ , على نحو ما ورد في قوله تعالى : { كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ } (القارعة: 5) فقد روى : كالصوف المنفوش .

6. الاختلاف بالزيادة والنقصان, مثلما وقع في قوله تعالى : { وَسَارِعُوا إلى مَغفِرَةٍ مّن رَّبِكُمْ} [آل عمران :133] فقد قرىء (وسارعوا) بإثبات الواو الأولى وحذفها , وقوله تعالى : { فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ} [الحديد : 24] قرىء بإثبات (هو) وحذفها .

7. الاختلاف في التفخيم والترقيق, والفتح والإمالة , والإظهار والإدغام, والهمز والتسهيل, والمد والقصر , ونحو ذلك .

وهكذا نرى أن التغير الصرفي الصوتي له القدح المعلى في تفسير حديث النبي عن القراءات . إذا ما تجاوزنا الحديث عن البند الرابع الخاص بالنحو فقط . بل إننا نجد أن صلة فن البلاغة بالتغير الصرفي الصوتي أمر تم إدراكه مبكرًا منذ عهد الصحابة والتابعين فمن ذلك ما روي عن ابن عباس (ت68هـ) أنه كان يقرأ (ننشرها) بالراء المهملة وفتح النون من قول الله تعالى : {وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا } (البقرة :259) ويحتج لقراءته بقوله تعالى :{ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ } (عبس : 22) , وكأنه يذهب بذلك إلى أن معناها نُحييها [7].

والذين اهتموا بهذا الجانب حقًا فهم أهل اللغة والتفسير وأصحاب المعاني عند توجيههم للقراءات القرآنية والاحتجاج لها أو بها ، وبذلك يصبح ما عرضنا له من

تغاير بين المبنى والمعنى طرحًا جديدًا كلَّ الجدة على تلك البلاغة التقليدية والبحث البلاغي برمَّته .[8]

ومما يؤكد ارتباط علم الصرف بعلم البلاغة : أن فن توجيه القراءات اعتمد على مجموعة من الأصول من أهمها موافقة العربية[9] التي منها أقيسة الصرف العربي ،الذي يُعنى بالأثر الدلالي الحاصل من تنوع بنى الكلمات داخل السياق القرآني, تبعًا لتغاير قراءاتها . وهكذا فإن الاتجاه اللغوي خاصة الصرفي كان هو الغالب في توجيه القراءات أما بقية الاتجاهات خاصة البلاغي فقد كان عالة على الاتجاه اللغوي حتى أصبح الاتجاه البلاغي بعد حين إحدى ثمار الاتجاه اللغوي خاصة الصرفي حيث ربط الاتجاه البلاغي في توجيه القراءات بين التغاير التصريفي فيها وتغاير مدلولاتها، بل إن جُلّ البلاغيين رأوا أن فصاحة الكلمة عامة هي: خلوصها من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي أو الصرفي[10]؛ فمن ذلك مثلاً ابن سنان الخفاجي فهو أحد البلاغيين الذين ربطوا بين تجاوب بنية التصغير ومقام التعبير عن المعنى الخفي أو اللطيف أو القليل.[11] حسبما هو موضح في سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي المتوفى 466هـ

بل وإن أحد البلاغيين وهو ابن سنان الخفاجي قد تزعم التفريق بين البلاغة والفصاحة خلافًا لكثير من البلاغيين الذين جمعوا بينهما وأكد ابن سنان على الربط بين فصاحة الكلمة وتصريفها بأن من شروط فصاحة الكلمة " أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ويدخل في هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة ويرده علماء النحو من التصريف الفاسد في الكلمة " [12]

أضف إلى ذلك البلاغيين الحديثين الذين اتجهوا إلى ربط البناء الصرفي ببلاغة القرآن فاقرأ قوله تعالى (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ).

تجد الآيات إجمالاً قصيرة في جميع أجزاء السورة, متناسبة في قصرها مع سرعة الانتقال في تصوير الحركات , أو مع إيجاز الأفكار في التحليل النفسي.

ومقتصرة على العناصر الأساسية للجملة، خالية من الزوائد خلو الأفكار والمشاهد من التفصيلات , متناسبة في تنوعها وانتقالاتها مع تنوع الموضوع, من فعلية غير مؤكدة, إلى اسمية مؤكدة, إلى استفهامية.

إن المرتل يشعر لهذه الآيات, أن لها طابعًا موسيقيًا واضحًا, وإذا قرأها قراءة فنية. وذلك هو الترتيل . لاحظ انقسامها إلى عدة نغمات متناسبة , مع أقسام النص من الوجهة الفكرية والنحوية.

فالقسم الأول : يتألف من خمس فقرات موسيقية , ذات نغمة واحدة تقل فيها المدود, وكل فقرة منها تتألف من كلمتين : أولاهما تحتوى على بعض المدود الطويلة, وثانيتهما وهي فاصلة الآية , كلمة ثلاثية , لا مدّ إلا في آخرها "ضبحا, قدحا, صبحا, نقعا, جمعا" وهذه الفقرات تمثل بقلة مدودها, وتوالي حروفها المتحركة , حركة الخيل في عدوها , ووقع حوافرها ثم ارتفاعها .

أما القسم الثاني من السورة , فهو أطول نفسًا , وأكثر مدودًا , وكأنه يشير بمدوده الطويلة إلى التأمل الطويل , والهدوء النفسي ؛ وتختلف كلمة الفاصلة في هذا القسم اختلافا كبيرًا ؛ في جرسها الموسيقي ؛ عن فاصلة القسم الأول كنود . شهيد . شديد .

والقسم الثالث يجمع بين المدود الطويلة في بعض أجزائه "أفلا يعلم إذا" وتوالى الحركات في كلمات أخرى "بعثر" . كما أن فاصلته ؛ تختلف عن القسمين السابقين في نبرتها ؛ وقوة جرسها " قبور ، صدور " .

ويعود القسم الأخير في نغمة هادئة ناشئة عن الممدود ؛ والميم الساكنة والتنوين ؛ إلى فاصلة تأخذ الياء من القسم الثاني . والراء من الثالث .

ويلاحظ أن لبعض ألفاظ السورة جرسًا موسيقيًا واضحًا . مناسبًا لمعناها , مثل " قدحا ونقعا " المناسبة لوقع حوافر الخيل . وبعثر المناسبة لانتشار أجساد الموتى بعد خروجها من الأرض. ومثل " حصل " الدالة بصادها المشددة على شدة التقصي والجمع .

فموسيقى النص في جملتها وتفصيلها . أي في نغمة الجمل . وجرس الألفاظ . وفواصل الآيات . مناسبة للمشهد والأفكار. ومقابلة لها.وتتنوع بتنوعها, وتنسجم انسجامها .

إن الموسيقى في السورة الكريمة , شديدة وعنيفة , وفيها خشونة ودمدمة وفرقعة, وهي تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور والصدور المحصل ما فيها بقوة , وجو الجحود , وشدة الأثرة فلما أراد لهذا كله , إطارًا مناسبًا , اختاره

من الجو الصاخب المعفر , كذلك تثيره الخيل الضابحة بأصواتها ,القادحة بحوافرها ,المغيرة مع الصباح المثيرة للغبار, فكان الإطار من الصورة . والصورة من الإطار , لدقة التنسيق وجمال الاختبار[13]

كذلك مما يؤكد ارتباط علم الصرف بعلم البلاغة : أن الاتجاه البلاغي عُني بشأن اللفظة المفردة , وأدرك مدى التجاوب بينها وبين السياق والمقام في إنتاج الأغراض البلاغية التي تستدعيها , وسر إيثار صيغة على أخرى في مقام دون سواه , وقد برز ذلك جليًا في تناول الموجهين لبلاغة الكلمة من حيث تعريفها وتنكيرها , وصور خروجها عن مقتضى الظاهر , وتعاقب حروف المعاني وما يضفيه مدلولها الوضعي على تغاير المعاني . ورغم ما طغى في تعليلاتهم لصور الخروج من أغراض أوليَّة شاعت في الفكر اللغوي منذ مرحلة باكرة , كقولهم مثلاً إن المفرد يقع موقع الجمع بغرض التخفيف , وإن الجمع يقع موقع المفرد بغرض التكثير أو الدلالة على الكثرة أو التعدد. فقد توسَّل بعضهم بتلك المعاني الأولية في استشراف معانيها الثواني التي ترمي إليها في سياقها ومقامها , ومذهب ابن جني (ت392هـ) والزمخشرى (ت538هـ) وأبى حيان (ت745هـ) في ذلك ليس منا ببعيد.

كذلك تهيأ لنا في توجيههم لتعاقب جمع القلة والكثرة على بعض المواضع القرائية مذهبان : حاول أحدهما أن يتلمس لكل وجه دلالته تبعًا لمتعلقاته في نسقه, ورأى الآخرُ أن صيغة القلة قد تخرج عن أصل وضعها إلى الدلالة على الكثرة في سياقها , وقد شُهر هذا المذهب عن الزجاج (ت311هـ) والفارسي (ت377هـ) وغيرهما .[14]

حيث إن علماء العربية السابقين كانوا يتسمون بالموسوعية وعدم التخصص؛ فجاءت دراساتهم العربية تجمع بين الجانب اللغوي والأدبي أو غيرهما " نظرًا لأن المعارف العربية كانت لا تزال وحدة متكاملة , لم ينفصل بعضها عن بعض , ولم يتحول بعدُ كلُّ فرع منها إلى علم مستقل قائم بذاته ولهذا فكثيرا ما يكون الفقيه نحويًا كاتبًا , والرَّاوية لغويًا معلمًا , والمفسِّر بلاغيًا وكثيرًا ما يكون المعدود منهم في طائفة مذكورًا في طائفة أخرى.[15]

فالبلاغة كانت مختلطة بمباحث النحو واللغة والإعجاز ولم تظهر البلاغة كعلم مستقل الأصول والتحديدات إلا في عصور متأخرة للدراسات العربية أي بعد القرن السادس الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي (ت626هـ) الذي اعتنى بتقسيم العلوم وعلى الرغم من أنه فتح الباب لتقسيم تلك العلوم وتحديدها إلا أنه لم يكن غائبًا عن وعي السكاكي الصلة بين علوم العربية إذ يذكر في مقدمة كتابه: " وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لابد منه وهي عدة أنواع متآخذة . أي مترابطة ترفد إحداها الأخرى . فأودعته علم الصرف بتمامه ، وإنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة , وقد كشفت عنها القناع , وأوردتُ علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني والبيان " [16]

وعلى الرغم من ذلك الاتصال الصرفي البلاغي إلا أن الصرفي بغيته المحافظة على اللغة بأشكال شتى منها الحكم بالصواب على المتكلم الموافق لقواعد تلك اللغة أو تخطئة المتكلم الخارج عن قواعدهم المعيارية المحافظة على اللغة من التجاوز بعيدًا عن تلك الحدود والضوابط التي ارتأوها.

أما البلاغيون فيتبرمون من تلك الحدود التي حدّها الصرفيون للصيغ العربية؛ فأخذ البلاغيون يتجوزون في التوسع لمعاني صيغة ما أو استخدام صيغة بدلا من الصيغة الأخرى المفترضة لأداء معنى ما. (17)

فراح البلاغيون يوجهون النقد الحاد للصرفيين للآتي ذكره :

1) لأن الصرفيين حددوا معاني لكل صيغة ، على حين أن البلاغيين يريدون أن يتوسعوا عن أسلافنا الصرفيين في المعاني التي تدل عليها أيّ من الصيغ .

وأنا أبرئ أسلافنا الصرفيين بأنهم حين تحدثوا عن المعاني التي تدل عليها أيّ من الصيغ الصرفية فكان ذلك بناء على ما وصل إلى أيديهم من شواهد لغوية حتى عصر الاستشهاد اللغوي .

أما البحث البلاغي فقد بدأ متأخرًا عن البحث اللغوي ولم يتقيد بالاستشهاد بعصر الاحتجاج الذي ألزم اللغويون أنفسهم به ؛ فأضاف البلاغيون معاني للصيغة الصرفية بناء على استشهادات لم تكن أمام أسلافنا الصرفيين عند التقعيد للغة تقعيدًا معياريًا بخلاف عمل البلاغيين الذين يتجهون إلى الوصف اللغوي بعيدًا عن التقعيد المعياري .

أضف إلى ذلك أن اللغة بداية تحتاج إلى البحث اللغوي الذي يبين الصواب من الخطأ ثم بعد ذلك تأتي الدراسة الجمالية للبلاغيين.

2) لأن اللغويين قالوا بأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى (18)كما قرر ذلك ابن جنى في الخصائص. (19) إلا أن أحد البلاغيين وهو ابن الأثير يزيد على ذلك الحكم الذي حكم به اللغويون يزيد عليه شرطًا أن تكون الصيغة محولة

من صيغة أقل إلى صيغة أخرى أكثر بناءً[20]؛ ومن هنا فإن ابن الأثير يتجرأ في نقده أكثر إذ يذكر " ومن هنا شذَّ الصواب عمن شذَّ عنه في (عالم)و(عليم) فإن جمهور علماء العربية. يعني اللغويين . يذهبون إلى أن (عليمًا) أبلغ في معنى العلم من (عالم) وقد تأملت ذلك , وأنعمت نظري فيه , فحصل عندي شك في الذي ذهبوا إليه , والذي أوجب ذلك الشك هو أن عالمًا وعليمًا على عدة واحدة , إذ كل منهما أربعة أحرف , وليس بينهما زيادة ينقل فيها.الأدنى إلى الأعلى "[21]

غير أنني أبرئ أسلافنا من اعتراض ابن الأثير فقد جانبه الصواب حيث إن الصرفيين ذهبوا إلى أن فعيل أبلغ من فاعل إذ إن اسم الفاعل من الثلاثي على أربعة (ف ا ع ل) فإذا أردنا المبالغة جاز لنا أن نحوله إلى (فعيل) أربعة حروف أيضًا , أو (فَعِل) ثلاثة أحرف أي أقل عددًا بيد أن فَعِل أقل في الحروف وبالرغم من ذلك فهي إحدى الصيغ الدالة على المبالغة كما ذكر أسلافنا الصرفيون إذ إنها على وزن أفعال السجايا فكان أبلغ .

3) حيث إن ابن سنان الخفاجى أحد أعلام البلاغيين يسفه رأي الخليل والرماني بأن تنافر الكلمة يرجع إلى بعد مخارج حروفها فيقول : " وقد ذهب الرماني إلى أن التنافر أن تتقارب الحروف في المخارج أو تتباعد بعدًا شديدًا , وحكى ذلك عن الخليل بن أحمد . والذي أذهب أنا إليه في هذا ما قدمت ذكره ولا أرى التنافر في بعد ما بين مخارج الحروف , وإنما هو في القرب ويدل على صحة ذلك الاعتبار أن هذه الكلمة . ألم . غير متنافرة وهي مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج , لأن الهمزة من أقصى الحلق والميم من الشفتين , واللام متوسطة بينهما , وعلى مذهبه كان يجب أن يكون هذا التأليف متنافرًا , لأنه على

غاية ما يمكن من البعد , وكذلك أم . و أو , لأن الواو من أبعد الحروف من الهمزة . وليس هذا مثل . عج ولا سز . لما يوجد فيهما من التنافر بالقرب ما بين الحرفين في كل كلمة . ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجهًا في التنافر على ما ذكره " [22]

بيد أن البحث يرى أن ابن سنان الخفاجي جانبه الصواب فيما ذهب إليه من نقد اللغويين الجليلين "الخليل" و"الرماني" حيث إن إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني . اعترف بإفادته من الدراسات اللغوية حتى قيل عنه بأنه نحوي لغوي[23] إضافة إلى أنه بلاغي . خالف الرأي السابق لابن سنان بأن فصاحة المفرد تقوم على التأليف من حروف متباعدة وبَيَّنَ عبد القاهر رأيه في فصاحة المفرد [24]

وأخيرًا هناك سؤال يطرح نفسه لماذا هذه الحدة التي تحدثنا عنها من البلاغيين تجاه أسلافهم الصرفيين؟

هل تناسى هؤلاء البلاغيون بأنهم قد استفادوا من الدراسات الصرفية لأسلافنا الأوائل في الحديث عن الكلمة المفردة من حيث حروفها متنافرة أم متلائمة وعوامل التنافر والتلائم ومن حيث خفتها وثقلها وأسباب الخفة والثقل ومن حيث كونها مهجورة أم مألوفة ؟ فهذا التفاوت في الألفاظ هو أساس فكرة البلاغة. فحديث الصرفيين الأوائل عن كل ذلك كان له أثر في نشأة البلاغة كما هو واضح من آثار الخليل بن أحمد في كتابه العين أو ما أثر عنه في كتب اللغويين والبلاغيين[25].

أضف إلى ذلك ما أثر عن سيبويه في الكتاب الذي أدى ببحثنا هذا إلى إبراز فكرة البينية الصرفية في الدراسات العربية (لغوية أم أدبية) ؛ لأنه قد انصب اهتمام الصرفيين العرب على استجلاء جوانب صرفية بعينها تخص أكثر ما تخص الدرس اللغوي . دون النظر . غالبًا . إلى ما تضمنه الصرف العربي عند إمام النحاة سيبويه في الكتاب من لفتات وتفسيرات بلاغية اعتبرت مع غيرها . فيما بعد . أصولاً استند عليها الدرس البلاغي في إقامة مباحثه وبيان وسائله وفنونه ومرد ذلك يعود . في نظري . إلى تصنيفهم الصرف تابعًا للدرس اللغوي المغاير للدرس الأدبي غافلين أو متغافلين البينية التي تربط الدراسات العربية سواء أكانت صرفيه لغوية أم بلاغية أدبية.

ومن ثم أردت في بحثي ذلك أن أركز على إبراز اتصال الصرف بالبلاغة[26] وأن يكون عمدتي . في بيان ذلك . كتاب سيبويه لأنهم أطلقوا عليه دستور النحو وقرآن النحو .... إلخ من نعوت لغوية غير أدبية , فأردت أن ألفت النظر إلى بعض ما تضمنه الكتاب من لفتات صرفية بلاغية أتاحت للاحقين ممن اختصوا بالدرس البلاغي إلى صياغة بلاغية متناغمة ذات صبغة علمية بهذه اللفتات والنظرات المتناثرة عند اللغويين الذين على رأسهم إمام النحاة صاحب أقدم كتاب وصل إلينا في نحو وصرف العربية إذ أذكر بعضًا من حديثه الصرفي البلاغي في الكتاب كحديثه عن الحذف الصرفي . للتنوين والنون . لعلة بلاغية وهي التخفيف على اللسان . أو "الاستخفاف"على حد تعبيره . إذ يذكر سيبويه:" واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض فالأفعال أثقل من الأسماء لأن الأسماء هي الأول وهي أشد تمكنًا, فمن ثم لم يلحقها تنوين , ولحقها الجزم والسكون.. والنكرة أخف

عليهم من المعرفة وهي أشد تمكنًا , لأن النكرة أول ثم يدخل عليها ما تعرف به فمن ثم أكثر الكلام ينصرف في النكرة . واعلم أن الواحد أشد تمكنًا من الجمع لأن الواحد الأول, ومن ثم لم يصرفوا ما جاء من الجمع على مثال ليس للواحد نحو مساجد و مفاتيح . واعلم أن المذكر أخف عليهم من المؤنث,لأن المذكر أول وهو أشد تمكنًا فالتنوين علامة للأمكن عندهم والأخف عليهم , وتركه علامة لما يستثقلون"[27] وأيضًا يذكر سيبويه " واعلم أن العرب يستخفون فيحذفون التنوين والنون , ولا يتغير من المعنى شيءٌ وينجرّ المفعول لكفِّ التنوين من الاسم ... وليس يغيّر كفُّ التنوين , إذا حذفتَه مُستخِفًا , شيئًا من المعنى , ولا يجعله معرفة, فمن ذلك قوله عزوجل : " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوتِ " .... و" لَو تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُسِهِم " فالمعنى معنى " وَلَا آمِّينَ البَيتَ الحَرَامَ "... وقال الخليل هو كائِنُ أخيكَ , على الاستخفاف, والمعنى هو كائنٌ أخاك"[28]

واستمر الأثر الواضح للدراسات الصرفية في البلاغة العربية بنصيب وافر قياسًا للدراسات الأخرى التي ترفد البلاغة العربية ؛ فالبحث الصرفي بيَّن أن هناك صيغًا صرفية تشترك في الدلالة على معنى واحد ،ثم جاء البحث البلاغي وبنى على كلام السلف من الصرفيين السابق أمرًا بلاغيًّا وهو أن البلاغة تعنى بحسن التخير لتلك الصيغة بدلاً من تلك الصيغة وموافقتها موضعها من الكلام؛ بناء على مراعاة الفروق بين المعاني الوظيفية للصيغ التي تشترك في معنى واحد. حيث إن المبدع عليه اختيار صيغة واحدة من بين تلك الصيغ الصالحة جميعها لأداء وظيفة عامة واحدة غير أن تلك الصيغ قاصرة عن أداء الصيغة المختارة في سياقها الخاص[29].

ومن ذلك قوله تعالى " لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ " حيث إن الله اختار صيغة "افتعل . اكتسبت " بدلاً من صيغة " فعل . كسبت " في الدلالة على فعل الشر فصيغة افتعل تأتى لمعان عدة حسب السياق, أما في سياق هذه الآية فإن معناها الاجتهاد والطلب والتصرف والمبالغة في معنى الفعل حسبما أشار إلى ذلك أسلافنا الصرفيون[30] الذين على رأسهم سيبويه إذ يقول " وأما كسب فإنه يقول أصاب , وأما اكتسب فهو التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب"[31]

وأخذ البلاغيون [32] يرددون الكلام السابق للسلف من الصرفيين دون ذكر إشارة الصرفيين إلى ذلك الملمح البلاغي ؛ حيث ذكرت الآية في التعبير عن الشر بالاكتساب بدلاً من الكسب لما في دلالة الاكتساب من تكلف واجتهاد وتعمل واضطراب وتصرف للتوصل إلى المعصية ويتناسب ذلك مع ما في المعصية من مخالفة مما يدعو الإنسان إلى الاحتيال فيها[33]

ولم يكتف أعلام من البلاغيين بالتنكر ضد اللغويين بل سلوا أقلامهم للفصل بين علم النحو والصرف من جهة وعلم البلاغة من جهة أخرى أمثال :

– قدامة بن جعفر في مقدمة كتابه نقد الشعر [34]

· والقاضي الجرجاني في كتابه الوساطة الذي يقسم المعترضين على المتنبي إلى فريقين أحدهما : " نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر " [35]

– وابن الأثير في كتابه "المثل السائر" الذي أمعن في إبراز الحجاب بين كلتا الدراستين اللغوية والبلاغية بقوله : " أسرار الفصاحة لا تؤخذ من علماء العربية

وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية , أو نقل كلمة لغوية ، وما جرى هذا المجرى , وأما أسرار الفصاحة فلها قوم مخصوصون بها "[36] وذلك . في رأيه . لأن " فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب "[37] ويترتب على ذلك عند ابن الأثير بأن " النحاة لا فُتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة , ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة " [38]

وأنا هنا في بحثي عن البينية أتساءل هل يصح أن تحدث مثل هذه التفرقة الحادة بين علماء في فروع لغة واحدة بدأت بخدمة القرآن ؟ , فيرى فريق أن هذا التركيب القرآني في إحدى القراءات أبلغ بينما يراه آخر ليس أبلغ .... هل تناسى هؤلاء المفرقون أن علوم اللغة العربية أول ما بدأت كانت لخدمة القرآن بقراءاته؟ ذلك القرآن الذي وصفوه بأنه بليغ إلى حد الإعجاز وبأنه جاء متسقًا مع قواعدهم وسلامة لغتهم.

ولله درُّ عبد القاهر الجرجاني اللغوي البلاغي[39] الذي حق له أن يُطلق عليه إمام البلاغيين فإنه أدرك بينية تلك العلوم المتآخذة؛ فما تلفظ بقول حاد على أسلافه اللغويين بل عرف لهم حسن جميلهم في التمهيد لإزهار البلاغة العربية .

فلا عجب إذن أن نجده كثيرًا ما يدلل على آرائه بالإشارة إلى لفتات سيبويه.

خاتمة

وبعد استعراض البينية التي تجمع بين شتات علوم اللغة العربية بين دفتي بحث " البينية ....." أو تحت مظلة " البينية لعلوم اللغة العربية " . والذي أبرز أهمية أن الصرف العربي بما له من علاقة وطيدة وعضوية بعلوم اللغة التي هي

بحاجة إليه تتأثر به حتى أثبتنا أن الصرف ليس غاية في حد ذاته بل تدرس مسائله متصلة بفروع اللغة

فإنه في الختام أدعو إلى:

- تجديد علم الصرف بما يتناسب مع التطور الصوتي الذي حدث للغة، وبما يتناسب مع علم الأصوات الحديث المبني على تقنيات علمية دقيقه ، وبعيدًا عن الافتراضات والتخيلات الصرفية المبنية على التذوق الصوتي فقط أو المبنية على التخيلات والافتراضات البعيدة عن الاستعمال اللغوي(40)

تلك الافتراضات الصرفية التي تظهر الصرف بأنه غاية في حد ذاته، وتنسي الباحث دور الصرف الأساسي الذي هو أحد روافد علوم العربية التي ينبغي على علماء تلك الفروع اللغوية أن يؤسسوا أنفسهم تأسيسًا صرفيًا صوتيًا خدمة لتخصصاتهم.

ولما كان الصرفيون القدامى قد تمتعوا بمقدرة على التذوق الصوتي حسب إمكانتهم البشرية المتاحة آنذاك فلم يكن من الممكن ولا من المستطاع أن يترك الحكم على أمثال هؤلاء الجهابذة للأفراد العاديين الذين لا يبلغون مستواهم سواء في حاستهم اللغوية أو مقدرتهم الذهنية أو نفاذ بصيرتهم وقوة خيالهم ... إلى غير ذلك من الصفات التي تتميز بها على الغير قلة محدودة من البشر. فكانت من مهمة اللغويين المحدثين تقويم هذه الأعمال التراثية ... ومثل هذه تستلزم أن يكون من ينهض بها جماعة أوتوا أدوات البحث العلمي وأساليبه وتقنياته الحديثة، بالإضافة إلى قوة الحس وأصالة الفكر؛ ليستطيعوا أن يجاروا أسلافنا الصرفيين،

ويحكموا على أعمالهم بالإبقاء عليها أو إظهار جوانب الضعف والخلل بها؛ لتبديلها بما يتسق مع معطيات علم اللغة الحديث وبخاصة علم الأصوات الحديث الذي يعد خطوة تمهيدية للدرس الصرفي .

- وأيضًا أدعو إلى تجديد الصناعة المعجمية بما يتناسب مع دور الصرف البارز في بناء المعجم .

- كما أدعو دعاة تجديد النحو العربي إلى أن يضعوا في اعتباراتهم تفادي تصادم الصرف بالنحو، بل الاستفادة من الصيغة في التركيب النحوي .

- كذلك أدعو البلاغيين إلى أن يبرزوا دور الصرف في البلاغة العربية .

وبعد ذلك العرض السابق الذي يظهر مرونة الصرف لصلته بجميع علوم اللغة العربية . على الرغم من استقلاله بذاته . آمل أن يفيد الدرس الصرفي الحديث من ذلك الترابط الذي يصل الصرف ببقية علوم اللغة العربية بإعادة ترتيب الأبواب الصرفية حسب اتصال الصرف بغيره من المستويات اللغوية بالتسلسل الآتي :" الصوتية[41] ثم النحوية[42]"، وذلك بعدما يتجاوز عن الآثار السيئة التي أشرنا إلى بعض منها بما يتناسب مع دور الصرف الصوتي كخطوة متقدمة على الدراسات اللغوية الأخرى , ويضيف إليه ما يحتاجه ؛ حتى تتحقق له سمة التكاملية التي تؤدي إلى إبراز البينية.

هوامش الدراسة:

([1]) سُلطة الجذور: الأثر السلبي للنحو على الدرس البلاغي– دراسة منشورة كتبها د/عيد بلبع في مجلة النقد الأدبي "فصول"الهيئة المصرية للكتاب العدد 60. خريف 2002م

([2]) فالسيوطى يؤكد أن الاختصار : "هو جل مقصود العرب وعليه مبنى أكثر كلامهم" الأشباه والنظائر 1/ 28 السيوطي . مطبعة دائرة المعارف العثمانية . الطبعة الثانية . 1359هـ.

([3]) انظر: شرح الشافية للرضي 1/ 192 ، تح محمد نور حسن . مطبعة حجازي بالقاهرة 1356هـ , أبنية الصرف في كتاب سيبويه د/ خديجة الحديثى صـ340 . مكتبة النهضة . بغداد ـ ط1 . 1965م .

([4]) علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة/ د. صلاح فضل/ مجلة فصول / ص57 / عدد أكتوبر 1984.

([5]) انظر: اللهجات العربية في القراءات القرآنية، عبده الراجحي، صـ 195، طبعة دار المعارف بمصر 1986م

([6]) انظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة صـ36: 38، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث بالقاهرة،ط2، 1973م

([7]) ينظر : معاني القرآن للفراء 1/ 173 , تحقيق أحمد يوسف نجاتي , ومحمد على النجار , والدكتور عبد الفتاح شلبي , نشر عالم الكتب , بيروت , الطبعة الثالثة 1983 .

([8]) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية صـ91 د/ أحمد سعد محمد . مكتبة الآداب 42 ميدان الأوبرا . القاهرة . 1998م . الطبعة الثانية 1421هـ . 2000م

([9]) انظر: الأصول تمام حسان صـ98 ،99 . الهيئة المصرية العامة للكتاب _ القاهرة 1982م أذكر أن:(أصول القراءة المقبولة : صحة الإسناد، وموافقة الرسم المصحفي , وموافقة وجه من وجوه العربية

([10]) الخطيب القزوينى : التلخيص في علوم البلاغة صـ24

([11]) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي صـ82. 84 ، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1994م

([12]) ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة صـ60 :82 تح على فوده . القاهرة . الخانجى ط1 1932م

([13]) راجع ذلك في: التصوير الفني في القرآن _ سيد قطب، والبناء الصوتي في البنيان القرآني ، محمد حسن شرشر ، ط1 ،دار الطباعة المحمدية ،1988م ،صـ27

([14]) التوجيه البلاغي للقراءات القرانية د/ أحمد سعد محمد صـ514

([15]) في تاريخ البلاغة العربية . د. عبد العزيز عتيق . دار النهضة العربية . بيروت . صـ 49

([16]) مفتاح العلوم لأبى يعقوب السكاكي صـ 3 . طبعة مصطفى الحلبي . الطبعة الأولى 1937م.

([17]) المعنى في البلاغة العربية منذ عبد القاهر حتى السكاكي دكتوراه بكلية دار العلوم، حسن طبل صـ229 .230

([18]) انظر: الخصائص لابن جنى 2/ 155 . 156 د/ محمد على النجار , ط دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت لبنان 1958 م

([19]) سبقه الخليل وسيبويه بذلك. انظر الكتاب 2 / 241 ط المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية 1317هـ .

([20]) إذ يذكر ابن الأثير: " النوع الثاني عشر في قوة اللفظ لقوة المعنى : هذا النوع قد ذكره أبو الفتح ابن جني في كتابه الخصائص إلا أنه لم يورده كما أوردته أنا, ولانبه على ما نبهت عليه من النكت التي تضمنته, وهذا يظهر بالوقوف على كلامي وكلامه ... اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلابد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً " راجع :المثل السائر لابن الأثير 2/ 241 تقديم وتعليق د. أحمد الحوفي , د.بدوى طبانة، ط دار نهضة مصر

([21]) المثل السائر لابن الأثير 274/2

([22]) سر الفصاحة صـ112 . لابن سنان . صبيح . 1953م

([23]) ارجع إلى: فلسفة عبد القاهر النحوية في دلائل الإعجاز صـ 305ـ د. فؤاد مخيمر ـ دار الثقافة . 1983م.

([24]) ارجع إلى: دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني صـ45 وما بعدها . المنار . ط1

([25]) ارجع إلى : النكت في إعجاز القرآن 88 للرماني الذي يذكر : " وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر , وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد , لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه , وكلاهما صعب على اللسان , والسهولة من ذلك في الاعتدال , ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال".

أو ارجع إلى : سر الفصاحة 75 , 58 الذي يذكر قول الخليل :" سمعنا كلمة شنعاء وهي (الهعخع) و أنكر تأليفها , كل ذلك اعتمادًا للخفة , وتجنبًا للثقل في النطق "

([26]) لذلك احتل اتصال الصرف بالبلاغة حجمًا أكبر من صلة الصرف بالمستويات اللغوية الأخرى .

([27]) الكتاب لسيويه 756/1 ، الأميرية

([28]) الكتاب لسيويه 1/ 165 ،166, 340 . تحقيق عبد السلام هارون . الخانجي . القاهرة . الطبعة الثانية . 1977م

([29]) انظر : دلائل الإعجاز صـ81 . 83 . عبد القاهر الجرجاني . ط المدني . تحقيق محمود شاكر , والبيان والتبين 63/1 . الجاحظ . تحقيق حسن السندوبي ط دار الكتب العلمية . بيروت , والبرهان في وجوه البيان . ابن وهب الكاتب صـ163. تحقيق عبد القادر أحمد عطا . دار الكتب العلمية . بيروت , والمعنى في البلاغة العربية منذ عبد القاهرحتى السكاكي . حسن طبل صـ230. دكتوراه بدار علوم القاهرة.

([30]) انظر: الكتاب لسيبويه 241/2 . المطبعة الأميرية ببولاق1317هـ.و شرح الشافية لابن الحاجب108/1 . ط دار الكتب العلمية . بيروت , وشذا العرف في فن الصرف للحملاوي 44. ط مصطفى الحلبي

([31]) انظر: الكتاب لسيبويه 241/2 . المطبعة الأميرية ببولاق1317هـ

([32]) انظر : الكشاف للزمخشرى 1/ 172 . ط دار الكتب العلمية . بيروت , ومفاتيح الغيب للرازي 4/ 51 ، 52 . ط دار الغد العربي

([33]) انظر : الكشاف للزمخشرى 1/ 172 , ومفاتيح الغيب للرازي 4/ 51 ، 52

([34]) نقد الشعر لقدامة بن جعفر صـ 2

([35]) الوساطة صـ436 تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي الحلبي وشركاه . 1966م

([36]) المثل السائر 1/ 288. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة مصطفىالبابي الحلبي . بمصر 1939م

([37]) المثل السائر 1/ 283

([38]) المثل السائر 2/ 164

([39]) قام البدراوي زهران ببحث عنوانه "عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني " وقد رجعت إلى الطبعة الثالثة منه 1986م . دار المعارف بالقاهرة

ارجع أيضًا إلى : " فلسفة عبد القاهر النحوية في دلائل الإعجاز" لفؤاد مخيمر . دار الثقافة . 1983م

([40]) من ذلك مثلا؛ البحث عن الأصل الافتراضي كاعتبارهم أن (قال) أصلها (قول) حيث تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفًا ؛ من أجل ذلك جعل الصرفيون كلمة " قال " على وزن " فعل " في الميزان الصرفي لأن الألف الذي في وسط الكلمة حرف عندهم , على حين أن علماء الأصوات المحدثين يرون أن توزن هذه الكلمة بشكل جديد على وزن فال

ومن ذلك أيضًا ؛ تفعلوت وفعلوت وفعلان وفعليا " فهذه أوزان مبتدعة لا تخدم اللغة ولا توسع الاستعمال ولا تأتي بجديد لأن فيها من الغرابة والثقل على اللسان ما يجعلها ممجومة ثم إنه لم يأت بجديد حقًا فكل أوزانه ما بعد منها عن العربية وما قرب قليلاً لا تخرج عن زيادة بعض حروف " اليوم تنساه " إلا بعض الأوزان، ولو أنه لجأ إلى الاشتقاق في التجديد فاشتق أفعالاً حديثة الصيغة من أسماء الأعيان مثلاً وهي لا تحصى وتزداد كل يوم بالبحث أو بالتعريب أو بالوضع "الاشتقاق . عبد الله أمين،ط لجنة التأليف الترجمة والنشر ،1959م

([41]) الخاص بتغيير الأصوات داخل الكلمة كما في :الإدغام وهمزة الوصل والزيادة والحذف و الإبدال والإعلال والإشمام والروم والإدغام والاختلاس والهمز والتضعيف ....

([42]) الخاص بتغيير الأصوات خاصة آخر الكلمة مما يؤثر على علاقتها بتركيب الجملة مثل: حذف نون المثنى أو جمع المذكر السالم وحذف تنوين المشتقات"اسم الفاعل وصيغ المبالغة واسم المفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والاسم المنسوب..." عند الإضافة لمعمولهما في باب عمل المشتقات عمل الفعل المشتق منه ، فكل هذه المشتقات الخاصة بعلم الصرف تؤثر في التركيب النحوي للجملة. هذا فيما يتعلق بالمشتقات في الأسماء أما فيما يتعلق بتصريف الأفعال : مثل حذف نون الأفعال الخمسة أو حذف حرف العلة في الفعل الأجوف والناقص في تركيبات نحوية معروفة وهذا التغير الصرفي النحوي لا يختص بآخر الفعل أو وسطه بالحذف في بنية الكلمة بل أحيانًا يكون التغير الصرفي النحوي بالزيادة بالتضعيف في وسط الفعل أو بالزيادة في أول الفعل كتغير الفعل اللازم إلى متعد ....